جامعة القاهرة
معهد البحوث والدراسات الافريقية

حوض النيل



حصريا خزانة الكتب التاريخية

بحوث ألقيت فى الندوة الدولية لحوض النيل

مارس ١٩٨٧

جامعة القاهرة – معهد البحوث والدراسات الإفريقية
النوبة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٥٣ – ٨٧



النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها فيما بين عامى (٢٠ - ٣١ هـ / ٦٤١ - ٦٥٢ م)

د. محمد عبد العال أحمد

النوبة ، طائفة من طوائف السودان ، تنتسب إلى نوبى بن قفط بن مصر بن نيصر بن حام بن نوح(١) ، وقيل أنهم ولد نوبة بن كوش بن كنعان بن حام(٢) ، ويزعمون أنهم من نسل حمير(٣) .

وتقع بلاد النوبة إلى الجنوب من مصر ، وكانت تضم المناطق الممتدة على طول جانبى النيل فيما بين الشلال الأول عند أسوان شمالاً ، إلى ملتقى النيلين الأبيض والأزرق(٤) ، أى إلى مدينة الخرطوم الحالية جنوباً .

وتضم هذه المنطقة ثلاثة أقاليم رئيسية مختلفة، تتصل فيما بينها من الشمال إلى الجنوب على النحو التالى :

■ إقليم النوبة السفلى (الشمالية) ، ويشمل المنطقة الواقعة فيما بين الشلال الأول شمالاً ، إلي وادى حلفا جنوباً . والنهر فيه صالح للملاحة لاستقامة مجراه وانعدام العوائق فيه(٥) .

---

(١) الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ليبزج ١٩٢٨ ، ص ٢٦٨ .
(٢) ابن خلدون : العبر، طبع بيروت ، جـ٢ ص ١٩٨ .
(٣) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٩٦٩، ص٢٤.
(٤) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، النجف ١٣٥٨ هـ، جـ١ ص١٩١ ، المقريزى ؛ الخطط ، بولاق ١٢٧٠ هـ، ص ١٩١ وما بعدها .
(٥) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، سكانه وقبائله ، ١٩٥١ ، ص٢٨٥ .

■ إقليم النوبة الوسطى ، ويحتل منطقة الوسط فيما بين وادى حلفا شمالا إلى دنقلة جنوباً . وهى منطقة صخرية وعرة ، والنهر هنا غير صالح للملاحة في معظم أجزائه، لكثرة الجنادل والصخور التى تعترض مجراه الضيق . أما الوادى فمرتفع عن مستوى النهر ، ولذلك أعاق إمكانية تسرب المياه إلى معظم الأراض الواقعة على جانبى المجرى، بالإضافة إلى انعدام الأمطار فى تلك المنطقة، مما جعلها صحراء جرداء ، باستثناء ذلك الشريط الضيق القريب من مجرى النهر(٦) .

■ إقليم النوبة العليا (الجنوبية)، ويقع فى أقصى الجنوب ، ويمتد فيما وراء دنقلة حتى التقاء النيلين الأبيض بالأزرق جنوباً . والنهر فى تلك المنطقة معتدل المجرى، متسع الوادى ، صالح للملاحة ، تغمر المياه معظمه أيام الفيضان . ويعد هذا الإقليم من أخصب المناطق(٧) .

وقد تداول على حكم تلك المناطق عدد من الدول التى ارتبطت بشكل أو بآخر بعلاقات لاسيما مع مصر منذ القدم ، وتعتبر دولة كوش من أهم تلك الدول التى حكمت بلاد النوبة .

أما عن العوامل التى أدت إلى قيام دولة كوش ، فترجع إلى ما كان من غزو الليبيين لمصر نحو منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، وتولى ملكهم شاشانق الأول حكم مصر. ونتيجة لذلك اضطرت جماعة من سلالة كهنة آمون إلى مغادرة طيبة والتوغل جنوباً، حيث تمكنوا من إقامة دولة كوش في منطقتى النوبة الوسطى والعليا (٨) ، واتخذوا مدينة نباتا(٩) عاصمة لدولتهم. وعلى ذلك تكون تلك الدولة مصرية التأسيس ، نوبية المنشأ

(٦) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ، ١٩٦٥ ، ص٢٨٥ .

(٧) محمد عوض محمد : نهر النيل ، الطبعة الأولى ، ص١٢٢ وما بعدها .

(٨) أى المنطقة الواقعة فيما بين وادى حلفا شمالاً إلى النيل الأزرق وكردفان جنوباً

Arkell: A History of the Sudan to A.D. 1821, London, 1955; pp. 112 f..

وانظر، نجيب ميخائيل إبراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم ، ١٩٦٢، جـ٢ ص٣٠٨ وما بعدها.

(٩) تقع نباتا بالقرب من الشلال الرابع عند سفح جبل البركل (مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، ١٩٦٠، ص٤ وما بعدها .

وقد تركزت جهود حكام كوش من أجل إخراج الليبيين من مصر ، فلما تحقق لهم ذلك، نقلوا مركز دولتهم إلى مصر، واتخذوا من مدينة طيبة عاصمة لهم. وهكذا بدأ حكم الأسرة الخامسة والعشرين فى مصر .

لم يمض غير نصف قرن (٧١٥ - ٦٦٣ ق.م) حتى اضطر ملوك تلك الأسرة إلى اتخاذ نباتا مرة أخرى عاصمة لهم، بعدما استولى الآشوريون على مصر[١٠].

ومع بداية القرن الثالث قبل الميلاد، بدأت نباتا تفقد أهميتها بسبب انتقال ملوك كوش إلى مروى[١١] واتخاذها عاصمة لهم، فاحتلت مروى مكانتها وحافظت على كيانها نحو ستة قرون ونصف ، أى إلى عام ٣٥٦ للميلاد ، وبلغ من شهرة مروى أن صار اسمها علماً على الدولة .

ومما يذكر ، أن النوبة السفلى كانت قد دخلت فى إطار دولة كوش ، وإن تمتعت بنوع من الاستقلال إلى أن حدث نزاع بين أحد ملوكها وبين كهنة نباتا ، فانتقل الملك إلى النوبة السفلى ، واتخذ من مدينة دكة عاصمة له، وارتبط بعلاقات ودية مع البطالمة فى مصر . فلما كان عهد بطليموس السادس (١٨١-١٤٥ ق.م) استولى البطالمة على النوبة السفلى ، وظلت تابعة لهم إلى أن استولى الرومان على مصر البطلمية سنة ٣٢ ق.م، وعندئذ تمكن الكوشيون من استعادة نفوذهم على النوبة السفلى[١٢] .

وباحتلال الرومان لمصر، واستعادة الكوشيين للنوبة السفلى ، دخل الكوشيون فى صراع ضد الرومان، وتوالت إغاراتهم على جنوب مصر[١٣] . وتتابعت الحملات الرومانية لتأديب الكوشيين ، ووصلت حملاتهم إلى أعماق النوبة إلى دكة وابريم ونباتا .

لم تؤد تلك الحملات إلى تحقيق الهدف فى وضع حد لإغارات النوبيين ،

(١٠) دريوتون وفانديه : مصر، ترجمة عباس بيومى ١٩٥٠ ، ص٥٩٧ وما بعدها .

(١١) تقع مروى القديمة بالقرب من كبوشية الحالية، أما مروى الجديدة فتقع بجوار نباتا.

(١٢) Budge, the Egyptian Sudan; Its history and monuments, London, 1907, Vol.II; P. 166.

(١٣) Budge, Op. Cit., P. 175.

نظراً لعودة قوات الرومان إلى قواعدها بعد كل حملة ، لذلك تركزت جهود الرومان على ضرب دولة كوش وإضعافها، عن طريق الارتباط بدولة أكسوم ، والعمل فى نفس الوقت على تعزيز الحاميات الرومانية على حدود مصر الجنوبية . كما أقام الرومان قلعة حصينة هناك ، ونقلوا سكان الواحة الخارجة إلى منطقة النوبة السفلى لتكون منطقة عازلة ويتولى المستوطنون الجدد التصدى للإغارات النوبية . كما قرر الرومان قدراً من المساعدات لكل من المستوطنين الجدد والسكان الأصليين، مما ساعد على هدوء الموقف واستقرار الأوضاع، وتوقف الإغارات النوبية ، ولكن إلى حين(١٤) .

وأياً ما كان الأمر ، فقد لجأ الرومان فى عهد الامبراطور قنسطنطين الأول إلى توطيد العلاقات مع الملك عيزانا ملك اكسوم، وعقد معه معاهدة تجارية(١٥)، كما كان لاعتناق عيزانا المسيحية سنة ٣٤٠م أثره فى إقبال رعاياه على اعتناقها وانتشارها فى بلاده ، وبإيعاز من الرومان قام حليفهم عيزانا بمحاربة الكوشيين، واكتسح بلادهم وقضى على دولتهم وعلى الأسرة الحاكمة فيها(١٦) .

وبسقوط دولة كوش (مروى) ، وبمرور الزمن ، قام على انقاضها ثلاث ممالك وهى من الجنوب إلى الشمال ؛ مملكة علوة ، ومملكة مقرة ، ومملكة نباتا .

---

(١٤) Bury, History of the later Roman Empire, London, 1889, Vol. II, P. 318.

(١٥) Bury, Op. Cit. P. 318, Paul, A History of the Beja Tribes of the Sudan, Camb., 1954, P. 47, Trimingham, Islam in the Sudan, London, 1949, P. 49.

(١٦) Shinnie: The Fall of Meröe, Kush, Vol. III, (Sudan Antiquities service occasional Papers) 1955, PP. 83 ff.

(لم تكتف دولة كوش بتحدى الرومان عن طريق تنظيم الإغارات على جنوب مصر، بل وباعتراض حركة الملاحة التجارية فى منطقة النوبة السفلى عبر النيل إلى مناطق وسط إفريقية، وبالتصدى لتيار التبشير، مما أدى إلى فشل المحاولات الرامية إلى إدخال تلك الدولة فى المسيحية ، ولذا لجأ الرومان إلى الإيعاز لملك أكسوم بمحاربة الكوشيين والقضاء على دولتهم) . مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠، ص٤ - ٣٤ .

مملكة علوة :

وتمتد من منطقة التقاء النيلين الأبيض والأزرق ، عند مدينة الخرطوم الحالية جنوباً ، إلى إقليم الأبواب[١٧] شمالاً ، وعاصمتها مدينة سوبة[١٨] ، وكانت تعرف أيضًا بمملكة سوبا ، نسبة إلى عاصمتها [١٩] .

وكانت هذه المملكة من أوسع ممالك النوبة وأخصبها وأكثرها مالا وثراء وأعظمها جيشاً [٢٠] .

مملكة مقرة[٢١] :

وتقع فى المنطقة الوسطى، وتحدها جنوباً مملكة علوة ، وشمالاً مملكة نباتا، أى فيما بين كبوشية[٢٢] جنوباً إلى قرب الشلال الثالث شمالاً ، وعاصمتها دنقلة ولذلك كانت تسمى مملكة دنقلة[٢٣] .

مملكة نباتا:

وهى المملكة الشمالية ، وتقع فيما بين مملكة مقرة ومصر ، وتمتد فيما بين

---

(١٧) يقع إقليم الأبواب بالقرب من مروى القديمة ، ويذكر المقريزى: أن هذا الإقليم ، هو أول بلاد علوة من الجهة الشمالية، وهو من أهم أقاليمها ، ويشتمل على عدة قرى على الشاطىء الشرقى للنيل . وكان والى هذا الإقليم من قبل صاحب علوة يلقب بالرحراح (الخطط، جـ١ ص١٩٠ – ١٩٢) وكان يتمتع بمكانة كبيرة بحكم مسئولياته عن الدفاع عن الحدود الشمالية للنوبة. Trimingham: Islam in the Sudan , P. 64.

(١٨) تقع مدينة سوبة إلى الشرق من الجزيرة الكبرى الواقعة بين النيلين الأبيض والأزرق على بعد خمس عشرة ميلاً إلى الشرق من الخرطوم الحالية . (مصطفى محمد مسعد: الإسلام والنوبة ، ص ٧٩) .

(١٩) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ١٩٥٣ ، ص٢٥ .

(٢٠) أبو صالح الأرمنى : تاريخه ١٨٩٤ ، ص ١٢٠ ، المقريزى ؛ الخطط ، جـ١ص ص١٩٣، عبد المجيد عابدين : نفس المرجع والصفحة .

(٢١) قال المقريزى : أن «النوبة والمقرة جنسان بلسانين . (الخطط ، جـ١ ص ١٩١) .

(٢٢) تقع كبوشية بالقرب من مروى القديمة . (Budge: Op. Cit., Vol. II, P. 166.).

(٢٣) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان، ص٢٥ .

الشلال الثالث جنوباً إلى قرية القصر[٢٤] بالقرب من أسوان شمالاً ، وعاصمتها نجراش[٢٥] .

وتنقسم كل مملكة من هذه الممالك إلى مقاطعات أو ولايات ، لكل منها حاكم يلقب بالملك ، ويخضع للملك المستقر فى العاصمة ، أى لملك الملوك الذى يتمتع بسلطات مطلقة، ولا يعصى رعاياه له أمراً ، فهو مالك رقابهم جميعا[٢٦] .

ويقضى نظام وراثة العرش بأن يكون ذلك حقاً لابن الأخت بعد وفاة الملك ، وليس للابن أن يرث عرش أبيه ، قال ابن حوقل : أن [٢٧] من سُنة السودان إذا هلك الملك أن يقعد ابن اخته دون كل قريب وحميم من ولد وأهل ، إلاَّ إذا لم يكن له ابن اخت ، فحينئذ يكون من حق الابن أن يخلف أباه على عرشه[٢٨] .

وإذا كانت دولة كوش قد اتخذت موقفاً معادياً للرومان وتصدت لتيار المسيحية ، فإن الممالك الثلاث قامت على أنقاضها قد تبنت نفس السياسة ، إلا أن الرومان لم يفقدوا الأمل فى إمكان التعامل مع تلك الممالك . وخاصة بعد أن فقدت المنطقة العازلة - التى أقامها الرومان فى عهد دقلديانوس - صلاحيتها، ولم تعد محققة للغرض الذى انشئت من أجله ، نتيجة استئناف النوبيين الإغارات على المعاقل الرومانية فى جنوب مصر، واستيلائهم سنة ٤٢٩م على الواحة الخارجة ، ومعاونتهم للعناصر المصرية ضد الرومان . ومع كل ذلك لم يعد الرومان وسيلة لاحتواء النوبيين ، إما بالاعتراف بمعتقداتهم الدينية والسماح لهم بالوصول إلى فيله لإقامة شعائرهم الدينية فيها ، أو بمنح بعض

(٢٤) قال المقريزى نقلاً عن عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى؛ أن قرية القصر هى أول بلاد النوبة (وهى على خمسة أميال جنوبى أسوان، وبينها وبين جزيرة بلاق (فيلة) - آخر حصن للمسلمين بمصر - ميل واحد . (الخطط ، جـ١ ص١٩٠).

(٢٥) نجراش أو بجراس أو باخوراس أو مريس، وهى فرس الحالية بالقرب من الشلال الثانى على نحو عشر مراحل من أسوان. (المقريزى ؛ الخطط، جـ١ ص ١٩٢، مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة ، ص ٤٣ ، عبد المجيد عابدين : نفس المرجع ، ص ٢٥) .

(٢٦) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ١٣٤٦هـ ، جـ١ص ٤١ .

(٢٧) صورة الأرض ، ص ٥٦ .

(٢٨) أبو صالح الأرمنى : تاريخه ، ص ١٢٥ .

زعمائهم الإقطاعات فى مصر، ابتغاء مرضاتهم، وتفادى مخاطرهم، وضمان وقف غاراتهم، وتأمين الحدود من جهتهم، وتنشيط الحركة التجارية عبر أراضيهم إلى وسط إفريقية ، مع التركيز على إغرائهم لاعتناق المسيحية[٢٩] .

أسفرت الجهود الرومانية عن تقبل البعض للمسيحية، وخاصة فى المدن والقرى الكبيرة، وأصبح هؤلاء بمثابة عناصر موالية . لذلك شجعهم الرومان لاستكمال نشر المسيحية ، وحرضوهم على مقاتلة الوثنيين من أبناء بلدتهم ، لإجبارهم علي اعتناق المسيحية بالقوة[٣٠] ، وتحويل معابدهم إلى كنائس ، بالإضافة إلى ما أنشأوه فى كثير من المدن كدنقلة وابريم وفرس وغيرها من المدن الممتدة فيما بين الشلال الأول إلى القطينة على النيل الأبيض جنوباً . حتى قيل أنه بلغ من كثرتها ، أن صار فى مملكة علوة وحدها أربعمائة كنيسة[٣١] . وتنافست كنيستا الإسكندرية والقسطنطينية على نشر المسيحية ، ونجحت كنيسة الإسكندرية فى اكتساب ملك نباتا سنة ٥٤٣م ، وملك علوة سنة ٥٨٧ م إذ اعتنقا المسيحية على مذهب كنيسة الإسكندرية اليعقوبى[٣٢] . أما ملك مقرة فقد اعتنقها سنة ٥٦٩م على مذهب القسطنطينية الملكانى ، وهذا يعنى أن المذهب اليعقوبى كان أكثر انتشاراً[٣٣] .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن أثر المسيحية اقتصر فى معظمه على المدن والقرى الكبيرة، وأن ذلك الأثر لم يكن كبيراً، لأن معظم من اعتنقها من النوبيين ظلوا على تمسكهم بالعادات والتقاليد الوثنية ، كما كان معظم النوبيين وقت الفتح الإسلامى لمصر ، لايزالون على وثنيتهم[٣٤] .

(٢٩) مصطفى مسعد : نفس المرجع ، ص ٣٦ - ٣٩ .

(٣٠) Budge, Op. Cit. P. 293.

(٣١) أبو صالح الأرمنى : تاريخه، ص ١٢٠ .

(٣٢) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٨٨٥، ص٧٧ ، المسعودى؛ التنبيه والإشراف، ليدن ١٨٩٤، ص ١٥١ ، المقريزى ؛ الخطط ، جـ١ ص ١٩٣ .

(٣٣) مصطفى مسعد : نفس المرجع ، ص ٥٥ -٦٥ .

(٣٤) اليعقوبى: كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١ ، ص٣٣٦، الاصطخرى؛ المسالك والممالك؛ القاهرة ١٩٦١، ص٣٢، وأبو الفدا ؛ المختصر فى أخبار البشر، بيروت ، جـ١ ص ٩٦ . ابن الوردى؛ تتمة المختصر (بيروت ١٩٧٠) جـ١ ص ١٣٥ .

وتجدر الإشارة إلى اندماج مملكتى نباتا ومقرة المتجاورتين فى مملكة واحدة عرفت باسم مملكة مقرة أو مملكة النوبة ، وشملت المنطقة من الشلال الأول شمالاً ، إلى حدود مملكة علوة جنوباً (٣٥) ، حيث جزيرة ساى ومدينة كورتى(٣٦) ، واتخذت مدينة دنقلة عاصمة لها(٣٧) . ولا شك أن حدوث هذا الاندماج رغم الاختلاف المذهبى بينهما يدل على عدم تأثير المسيحية على أهل النوبة ، أو أنه يمثل تفوقاً للمذهب اليعقوبى فيها(٣٨) . بسبب تلاشى المذهب الملكانى شيئاً فشيئاً، وخاصة بعد الفتح الإسلامى لمصر ، وزوال النفوذ البيزنطى تبعاً لذلك .

وقد قسمت هذه المملكة إدارياً إلى ثلاثة عشر إقليماً ، ويلقب حاكم كل منها بالملك(٣٩) . ويخضع هؤلاء الحكام أو ملوك الأقاليم لكبير الملوك فى دنقلة. ومن ألقابه ملك النوبة أو ملك الملوك ، وعرفه العرب باسم عظيم النوبة(٤٠) ، وحكمه نافذ في رعيته ويده مطلقة فيهم، ومن حقه أن يسترق من شاء منهم ، وله أن يتصرف فى أموالهم(٤١) .

ويعتبر حاكم إقليم مريس - المجاور لحدود مصر - من أهم ولاة الأقاليم ، وكان يعرف بصاحب الجبل ، ويقع عليه عبء حماية الحدود الشمالية ، والدفاع عنها ضد أى غزو خارجى(٤٢) . ولذلك كان يتم اختياره من بين من يتصفون

(٣٥) المقريزى : الخطط، جـ١ ص٢٠٠ . Trimingham. Op. Cit. P. 59 .

(٣٦) حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية ، القاهرة ١٩٦٣، ص ٣٠٨ .

(٣٧) الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ليبزج ١٩٢٨، ٢٦٨ ، المقريزى؛ نفس المصدر ، جـ١ ص ١٩٢، (ودنقلة مدينة عظيمة ببلاد النوبة ، وهي منزل ملكهم). القزوينى؛ آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٩، ص٣٩ (وهى غير دنقلة الحالية ، التى تقع إلى الشمال منها بنحو مائة ميل) سعيد عبد الفتاح عاشور ؛ مصر في عصر المماليك البحرية، القاهرة ١٩٥٩، ص ٧٦، حسن محمود ؛ نفس المرجع، ص ٣٠٨ .

(٣٨) الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٢٦٩ ، القزوينى ؛ آثار البلاد ، ص ٣٩، ابن الفقيه ؛ كتاب البلدان، ص ٧٧، المسعودي؛ التنبيه والإشراف ، ص٥١ .

(٣٩) المقريزي : نفس المصدر ، جـ١ ص٢٠٠ .

(٤٠) المقريزي : نفس المصدر والصفحة .

(٤١) المسعودي : مروج الذهب، جـ١١ ص ٢٤٧ ، القزوينى ؛ نفس المصدر، ص ٢٥ .

(٤٢) حسن محمود : نفس المرجع ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ ، ٣٠٨ .

بالحزم والشدة والبأس ، وكان مقره مدينة نجراش (فرس الحالية)، وكان دائم التنقل إلى المدن الأخرى التابعة لإقليمه لتفقد أحوالها أو إقامة التحصينات العسكرية لحماية منطقته ، وتأمين الحدود الشمالية للدولة(٤٣) .

ومما لا شك فيه أن بلاد النوبة ارتبطت بمصر بروابط قوية منذ ربط النيل بينهما . وكان لتلك الروابط آثارها البارزة فى كثير من النواحى التجارية والدينية والحضارية وإذا كانت العلاقات قد اتخذت فى كثير من الأحيان مظهراً عدائياً، تمثل فى الإغارات على حدود مصر الجنوبية، فإن ذلك فى حد ذاته يمثل دليل رغبة مؤكدة للإتصال، وتمسك بتحقيق استمرار الروابط، ويوضح ذلك مدى حاجة النوبة لمصر ، تسعى إليها ولو عن طريق الإغارات ، عندما تحتم ظروف مصر الداخلية توقف تلك الإتصالات . وهذه هى طبيعة الدول المتجاورة، لا تقف الحدود عقبة فى سبيل استمرار العلاقات بينهما ، وخاصة إذا كانت إحداها أرقى حضارياً ، فإن توقف إشعاعها الحضارى لأى سبب من الأسباب، يكون دافعاً للدول المجاورة - التى افتقدت ذلك المد الحضارى - إلى السعى لاستمرار الاتصال بأى وسيلة ، ولو كانت ذات مظهر عدائى كالاغارات المتكررة . وكان ذلك هو موقف النوبة مع مصر إلى حين الفتح الإسلامى لمصر .

أما عن العلاقات بين الجزيرة العربية وبلاد النوبة ، فهى تدخل فى إطار العلاقات العربية الافريقية . فقد ارتبطت المناطق الواقعة على شاطئى البحر الأحمر بعلاقات قديمة ، ولم يكن هذا البحر حائلاً أمام الاتصال بين جزيرة العرب وساحل إفريقية الشرقى. فقد تمرس العرب ، وخاصة فى جنوب الجزيرة، فكانوا على درجة كبيرة من الخبرة البحرية ، بحكم نشأتهم فى الموانى الممتدة على طول سواحل تلك البلاد ، وتحكمهم فى طرق تجارة الشرق العالمية، ومساهمتهم فى حركة التبادل التجارى بين الشرق والغرب منذ أقدم العصور . وعرفت سفن الممالك القديمة كسبأ وحمير وحضرموت طريقها عبر البحر الأحمر إلى الشاطئ الإفريقى ، حاملة السلع المحلية وغيرها من سلع الشرق لمبادلتها بأنواع التجارة الإفريقية كالعاج والرقيق وزيت النخيل وغيرها(٤٤) .

(٤٣) حسن محمود : نفس المرجع ، ص ٢٨١ ، مصطفى مسعد ؛ نفس المرجع ، ص ٧٣ - ٨٥.
(٤٤) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الافريقية ، ١٩٦٤ ، ص ٢٦ .

توطدت العلاقات العربية بسكان شرق إفريقية ، وأنشأ تجار العرب المحطات والمراكز التجارية على طول الساحل الافريقى المقابل ، لتكون مناطق ارتكاز تصل إليها سلعهم الواردة والصادرة . وتبدأ قوافلهم من هذه المراكز ، حاملة ما جاءوا به من بضائع ، ويتوغلون بها إلى أسواق التجارة الافريقية فى قلب القارة ، حيث كان لهم وكلاؤهم التجاريين فى مناطق الأسواق الداخلية التى كانوا يقصدونها ومنه ما كان على النيل(٤٥) .

أدى هذا النشاط التجارى إلى زيادة إقبال العناصر العربية على الوصول إلى المناطق الممتدة على طول الساحل الإفريقى الشرقى ، وإلى ما يلى سفالة الزنج جنوباً وقد بأت حركة الهجرة من الجزيرة العربية إلى تلك المناطق بأعداد كبيرة من اليمنيين إلى تلك المناطق، وخاصة بعد خراب سد مأرب ، وتوغلت جموع منهم تجاه وادى النيل غرباً . واستقرت جماعات منهم فى بعض مناطق حوض النيل والحبشة(٤٦) .

وإلى جانب طوائف التجار والمهاجرين ، يشير ابن خلدون إلى حملات عسكرية قام بها الحميريون ، ووصلت جموعهم إلى بعض مناطق النوبة والسودان، واخترقت قلب القارة إلى شمالها فى بلاد المغرب وأستقرت مجموعات منهم فى المناطق التى وصلت إليها(٤٧) . ولهذا قرر ابن خلدون أن أصل البربر من اليمن ، وأنهم من أبناء النعمان بن حمير بن سبأ(٤٨) . كما يدعى ملوك غانه ومالى الانتساب إلى أصول عربية ، فى حين يعلن ملوك برنو أنهم من نسل سيف بن ذى يزن أى أنهم يمنيون(٤٩) .

وإذا كانت بعض تلك الروايات تدخل فى عداد الأساطير ، إلا أنه من الثابت حدوث تلك العلاقات بين الجزيرة العربية وكثير من المناطق الإفريقية منذ زمن بعيد . مما كان له أكبر الأثر فى انتقال العادات والتقاليد وتبادلها على مر

(٤٥) مصطفى محمد مسعد : نفس المرجع ، ص ١٠٧ .
(٤٦) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ص ١١ – ١٢ .
(٤٧) ابن خلدون : العبر ، جـ١ ص ١٧٦، جـ٦ ص ١٩٩ .
(٤٨) العبر ، جـ٣ ص ٩٣ ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، جـ١ ص٨٢.
(٤٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، نشر دار الكتب المصرية ، جـ٨ ص ١١٧ .

العصور، ومن ناحية أخرى ، فقد كان الوافدون العرب نواة لغيرهم وركيزة لهم، مما شجع الكثيرين على التعامل مع تلك المناطق أو الهجرة إليها.

ومن المعروف أن العرب استخدموا المسالك الإفريقية المقابلة ، ثم أضافوا إليها - بعد فتح مصر - أكثر من مسلك تجاه الغرب والجنوب ، فبعد أن تدفقت جموع الفاتحين إلى مصر ، إندفعت للإنتشار فى المناطق التى تم فتحها ، واختلطوا بعد استكمال الفتح بالسكان الأصليين . وقد كان الموقف آنذاك يتطلب العمل على تأمين ما تم من فتوحات ، إذ أنه بعد الفتح الإسلامى لبلاد الشام ، انسحبت قوات الروم (البيزنطيين) إلى مصر باعتبارها الملجأ الطبيعى بعد فقد الشام. وكان على المسلمين فى نفس الوقت أن يستثمروا انتصاراتهم، بتعقب الفارين والوصول بالفتوحات غرباً إلى مصر ، ولذلك سارع عمرو بن العاص بجيشه إليها. ويشير الواقدى إلى استنجاد المقوقس بملك النوبة ، إلا أن الملك المذكور لم يتمكن من إرسال المطلوب لوقوع خلاف بينه وبين ملك البجاة(٥٠) . وقيل بل توجه كل من ملكى النوبة والبجة على رأس جيش كبير للمشاركة فى فك الحصار الإسلامى عن البهنسا(٥١) .

فلما تم فتح مصر، نصت معاهدة الصلح بين عمرو بن العاص والمقوقس فيما يتعلق بالمصريين ، بالأ «يساكنهم النوبة» ، ونصت فى نفس الوقت، على أن من يدخل فى الصلح من «الروم والنوبة فله مثل مالهم، وعليه مثل ماعليهم، ومن أبي واختار الذهاب ، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، أو يخرج من سلطاننا ... وعلى النوبة الذين استجابوا ، أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرسا، على ألا يغزوا أو يمنعوا من تجارة صادرة أو واردة(٥٢) .

---

(٥٠) الواقدى : فتوح مصر والاسكندرية ، ليدن ١٨٢٥ ، ص ٥٧ ، ٦٠ ، ٧٧ - ٧٨ .

(٥١) Budge, The Egyptian Sudan, Vol. II, P. 184, Burckhardt, Travels in Nubia, London, 1819, p. 528.

(٥٢) ابن كثير : البداية والنهاية، طبعة السعادة ، جـ٧ ص ٩٨، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، طبعة دار الكتب ، جـ١ ص ٢٤ - ٢٥، وقارن الطبرى : تاريخه، ليدن ١٨٩٣، القسم الأول ص ٢٥٨٨ - ٢٥٨٩، ابن خلدون : تاريخه ، بيروت ١٩٦٦، المجلد الثانى ص ٩٧١ .

وهكذا أجرى المسلمون من دخل فى صلحهم من الروم والنوبة مجرى أهل مصر، من تأمينهم على أنفسهم وأموالهم وذمتهم وكنائسهم، إلا من اختار الذهاب منهم، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه(٥٣) . كما تعهد المسلمون بحماية مصر وأهلها من الاغارات ، ومنها إغارات أهل النوبة(٥٤) ، ذلك أن النوبيين كانوا ينظرون إلى مصر - ذات الخيرات - على أنها غنيمة لهم ، مثلما كانت لآبائهم وأجدادهم من قبل، ولذلك فلم يكن فى الإمكان أن يتوقف النوبيون عن الإغارة على مناطق مصر الجنوبية(٥٥). ولهذا كان العمل من أجل فتح تلك البلاد، لوقف الإغارات وتأمين الحدود، وتيسير وصول الدعوة الإسلامية إليها، وضمان انتظام الحركة التجارية الصادرة من مصر والواردة عبر أراضى النوبة ، حيث كانت السفن تحمل المقادير الكبيرة من الذهب والعاج وغيرهما عبر تلك الأراضى(٥٦).

ونتيجة للإغارات التى شنها النوبيون على صعيد مصر، وما ترتب على ذلك من تأثير الحركة التجارية، استأذن عمر بن العاص من الخليفة عمر بن الخطاب لتوجيه الحملات إلى بلاد النوبة لوقف الاعتداءات النوبية وتأمين الحدود ، وفتح الطرق التجارية النهرية والبرية عبر تلك البلاد. بالإضافة إلى تحقيق وصول الدعوة الإسلامية إلى أهالى النوبة(٥٧) .

قال البلاذرى: «لما فتح المسلمون مصر، بعث عمرو بن العاص إلى القرى التى حولها الخيل ليطأهم، فبعث عقبة بن نافع الفهرى - وكان نافع أخا العاص لأمه - فدخلت خيولهم أرض النوبة كما تدخل صوائف الروم، فلقي المسلمون بالنوبة قتالاً شديداً . لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقوءة ، فسموا رماة الحدق(٥٨) .

(٥٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ١٣٤٩ هـ ، جـ٢ ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .
(٥٤) بتلر : فتح العرب لمصر ، القاهرة ١٩٤٩، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ، ٢٤٩ .
(٥٥) بتلر : نفس المرجع ، ص ٣١٦ ، مصطفى مسعد ؛ نفس المرجع ، ص١١١ .
(٥٦) بتلر : نفس المرجع . ص٨٣ .
(٥٧) المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ص ٢٩ ، جـ٣ ص ٣٨ - ٣٩ .
(٥٨) البلاذرى : فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، ١٩٥٦ ، ق ١ ص ٢٨٠ ، ابن خرداذبة ؛ المسالك والممالك ، ليدن ١٨٩٩، ص ٩٢ ، وقارن ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر ، ١٩٦١، ص٢٢٨، ابن الفرات ؛ تاريخ ابن الفرات، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣١٩٧ تاريخ تيمور ، جـ١٣ ، ص ٣٠ب ، حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ، ص٢٤ ، محمد التونجى ؛ عقبة بن نافع، بنغازى ١٩٧٥ ص , ١٧٠

وذكر الطبرى فى حوادث سنة ٢٠هـ: «أن المسلمين لما فتحوا مصر غزوا نوبة مصر ، فقفل المسلمون بالجراحات وذهاب الحدق من جودة الرمى ، فسموا : رماة الحدق[٥٩] .

وقال المسعودى : «وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما افتتح عمرو بن العاص مصر ، كتب إليه بمحاربة النوبة ، فغزاهم المسلمون فوجدوهم يرمون الحدق، وأبى عمرو بن العاص أن يصالحهم حتى صرف عن مصر[٦٠] .

وقال ابن عبد الحكم: «وبعث عمرو بن العاص نافع بن عبد القيس الفهرى ، وكان أخا العاص بن وائل لأمه، فدخلت خيولهم أرض النوبة صوائف كصوائف الروم، فلم يزل الأمر على ذلك حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر[٦١] ».

وذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٠هـ ، : أنه «لما فتحت مصر غزوا النوبة، فرجع المسلمون بالجراحات وذهاب الحدق لجودة رميهم، فسموهم رماة الحدق[٦٢] .

أما المقريزى ، فيقول ، أن: «أول ما تقرر هذا البقط فى إمارة عمرو بن العاص ، لما بعث عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعد فتح مصر إلى النوبة سنة عشرين ، وقيل سنة إحدى وعشرين ، فى عشرين ألفاً . فمكث بها زماناً ، فكتب إليه عمرو يأمره بالرجوع إليه[٦٣] .

وهكذا ، وبعد استعراض النصوص الخاصة بحملة النوبة الأولى ، يتضح لنا أنها ليست كافية لتوضيح تصور كامل عنها. فقد أغفلت كل ما يتعلق بإعداد الحملة وحجمها، وخط سيرها، وما إذا كانت برية ونهرية ، أم برية فقط، ومدى توغلها فى عمق البلاد ، وموقع المعركة، كما اختلفت المصادر حول تحديد

(٥٩) تاريخ الرسل والملوك ، ق١ ص ٢٥٩٣ .
(٦٠) مروج الذهب، جـ١ ص ٢٤٦-٢٤٧ ، الحميري : الروض المعطار ، بيروت ١٩٧٥، ص٢٣٧ .
(٦١) فتوح مصر، ص ٢٢٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ١٣٢٧ هـ ، جـ ١ ص ٦٢ .
(٦٢) الكامل فى التاريخ ، جـ٢ ص ٣٩٧ ، (قال القلقشندى : «لما فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر ، غزاهم».) صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب ، جـ٥ ص ٢٧٦ .
(٦٣) الخطط ، جـ ١ ص ٢٠٠ .

شخصية قائد الحملة. خلطت بعض المصادر بين هذه الحملة وبين حملة عبد الله بن سعد سنة ٣١هـ / ٦٥٢م . إذ جعل المقريزى تقرير البقط فى الحملة الأولى، أى على عهد عمرو بن العاص، وفى خلافة عمر بن الخطاب[٦٤] .

وفيما يتعلق بمحاولة توضيح بعض تلك النقاط، فإنه على ضوء طبيعة المرحلة وسياسة الفاتحين خلالها ، وحجم القوة العسكرية فى مصر وقتذاك ، وضرورة المحافظة عليها وعدم إضعافها بتشتيتها فى جبهات متعددة ، فإنه يمكن القول بأن المحاولات الأولى لفتح النوبة أو المغرب، وإن استهدفت تحقيق الهدف الأساسى من الفتوحات، من إتاحة الفرصة لتعامل الإسلام مباشرة مع شعوب تلك المناطق ، ووصول الدعوة إليهم. إلا أن ذلك كان مرتبطاً بمدى ما يمكن إعداده من قوة قادرة على الفتح واستكماله .

فقد كان على القوات الإسلامية فى مصر تثبيت الوجود الإسلامى فيها، ودفع المخاطر التى تتهددها ، وتأمين حدودها الجنوبية والغربية. غير أن تلك القوات لم تكن من الكثرة بحيث يمكن تخصيص أعداد كبيرة منها لتوجيهها إلى المناطق الجنوبية والغربية. وهذا ينفى ما ذكره المقريزى من أن الحملة الأولى على النوبة كانت تتكون من عشرين ألفاً[٦٥] ، وإنما كانت تتكون من عدد محدود من الفرسان[٦٦] . يؤيد ذلك ما ذكرته المصادر من أن أولى الحملات التى قادها عمرو بن العاص لفتح برقة ، وهى فى حدود الفترة التى وجهت فيها حملة النوبة الأولى ، كانت من الفرسان[٦٧] . وهذا يعنى أنها كانت قليلة العدد، رغم إحتمالات المخاطر من جهة البيزنطيين فى الجبهة الغربية . وعلى ذلك فإن تلك الحملة وغيرها فى كل من الجبهتين لم تكن فى قوة كافية بحيث يمكنها تثبيت ما تحققه من فتوحات، وضمان استمرار تبعية ما تفتحه بترتيب الحاميات

(٦٤) الخطط ، نفس الجزء والصفحة .

(٦٥) الخطط ، نفس الجزء والصفحة .

(٦٦) انظر ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ق١ ص ٢٨٠ .

(٦٧) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ، طبعة كولان وبروفنسال، ص ٨، السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، الطبعة الأولى ١٩٦٦، جـ٢ ص ١٤٢ ، سعد زغلول عبد الحميد؛ تاريخ المغرب العربى ١٩٧٩، جـ١ ص١٣١.

الكافية والدائمة فيها، إذ أن صغر حجم الحملات حتم عودتها إلى قواعدها بعد كل حملة بمجرد القيام بما أعدت له. ودون ترك حاميات فى المناطق التى تم فتحها، مما يدل على أن الحملات الأولى لم تكن سوى حملات استطلاعية محدودة العدد، تتكون كل منها من مجموعة من الفرسان.

وهكذا ، يمكن القول بأن حملة النوبة سنة ٢٠ أو ٢١ هـ (٦٤١ - ٦٤٢م) كانت كذلك محدودة العدد ، ولذلك لم تستهدف الفتح الكامل والدائم بقدر ما كانت للاستطلاع والاستكشاف وتأمين الحدود والتمهيد لنشر الاسلام والتعرف على طبيعة البلاد ومسالكها وتكوين تصور كامل عن قوتها، مما يساعد على تنظيم وإعداد عمليات الفتح على ضوئها، عندما تتوفر القوة الكافية التى يمكن تخصيصها لتحقيق ذلك .

وإذا كانت المصادر لم تنص على خط سير الحملة، وبيان مدى توغلها ، أو تحديد موقع المعركة، فإنه يمكن القول بأن الحملة كانت برية لكونها من الفرسان، وأنها أستهدفت المواقع القريبة من حدود مصر الجنوبية فيما يلى أسوان وما حولها، حيث كانت الإغارات النوبية تنطلق منها. وعلى ذلك لم تكن المعركة تبعد كثيراً من حدود مصر. يؤيد ذلك ما ذكره الطبرى ، من أن الغزوة كانت لنوبة مصر(٦٨) ، أى منطقة النوبة القريبة من مصر ، مما سهل للحملة مهمة الانسحاب والعودة بعد أن أصيب بعض أفرادها بجراحات وحدق مفقرءة، لتضع بين يدى عمرو بن العاص تقريراً عن صورة الموقف ، وأسباب إخفاق الغزوة التي ترجع إلى قلة عدد الفرسان، مع كثرة عدد النوبيين وشدة مقاومتهم، ومهاراتهم فى الرمى بالسهام .

لم تكن المعركة معركة التحام بين القوتين ، ليظهر المسلمون براعتهم فى القتال بالسيوف ، ولكن لعدم خبرة النوبيين بالفروسية، فقد عملوا على أن تكون المعركة بالأسلوب الذى يجيدونه ، مما جعل من المتعذر أن تكون المعركة معركة فروسية بالسيف، فظهرت براعة النوبيين فى الرمى بالسهام، وقدرتهم على إصابة الهدف ، إذ كانوا يصوبون سهامهم إلى عيون مقاتلى المسلمين، فيصيبونها

(٦٨) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، ق١ ص ٢٥٩٣ .

في دقـة تامـة. فكانت تلك الحـملة بمثـابة أول إتصـال بين الفـاتحين وشـمـال السودان.

ويمدنا البلاذري برواية أسندها إلى من رواها عن واحد ممن شارك فى تلك المعركة قال: «شهدت النوبة مرتين في ولاية عمر بن الخطاب ، فلم أر قوماً أحد فى حرب منهم لقد رايت أحدهم يقول للمسلم: أين تحب أن أضع سهمى منك ؟ فـربما عبث الفتى منا فقال: فى مكان كذا فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمى بالنبل، فما يكاد يرى من نبلهم فى الأرض شيء . فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا، ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف، فما قدرنا على معالجتهم. رمونا حتى ذهبت الأعين، فعدت مائة وخمسون عيناً مفقوءة. فقلنا: ما لهؤلاء خير من الصلح ، إن سلبهم لقليل ، وإن نكايتهم لشديدة ، فلم يصالحهم عمرو ، ولم يزل يكالبهم حتى نزع(٦٩) .

أما فيما يتعلق بما ذكره المقريزى من أن تقرير البقط على النوبة كان نتيجة لتلك الحملة(٧٠) . فإن المصادر الأقدم ، لم تمدنا بما يؤيد ذلك، بل على العكس فكلها تشير إلى اضطرار الحملة إلى الانسحاب والعودة لشدة مقاومة النوبيين(٧١) ، وهو موقف لا يمكن القول بأنه من الممكن أن يتقرر البقط نتيجة له، اللهم إذا كان المقصود ماورد عن النوبيين فى معاهدة الصلح التى عقدها عمرو بن العاص مع المقوقس عند فتح مصر(٧٢) . إلاّ أن المقريزى ينص على أن تقرير البقط كان نتيجة للحملة الأولى على بلاد النوبة .

ومن ناحية أخرى فإن استمرار عمرو بن العاص فى إرسال فرسان المسلمين إلى النوبة صوائف كصوائف الروم(٧٣) ، ورفضه مصالحة النوبيين إلى أن صرف

(٦٩) فتوح البلدان ، ق ١ ص ٢٨٠ – ٢٨١ .

(٧٠) الخطط ، جـ١ ص ٢٠٠ ، حسن إبراهيم حسن؛ إنتشار الإسلام فى القارة الافريقية ، ص ١٣٩.

(٧١) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٨٠ ، الطبرى؛ تاريخه ، ق١ ص ٢٥٩٣، ابن الأثير ؛ الكامل فى التاريخ، جـ٢ ص ٣٩٧.

(٧٢) الطبرى : نفس المصدر، ق١ ص ٢٥٨٨ – ٢٥٨٩، ابن كثير؛ البداية والنهاية، جـ٧ ص٩٨.

(٧٣) البلاذرى : نفس المصدر والصفحة ، ابن عبد الحكم؛ فتوح مصر والمغرب، ص٢٢٨، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص ٦٢ .

عن مصر[٧٤] ، فإن فى ذلك دليل على استمرار الغزوات صوائف طيلة ولاية عمرو بن العاص وإلى أن كانت حملة عبد الله بن سعد سنة ٣١هـ/٦٥٢م.

ويستوقفنا أخيرا فيما يتعلق بهذه الحملة، تحديد شخصية قائدها، إذ تضاربت المصادر حول شخصيات ثلاث، عبدالله بن سعد بن أبى سرح[٧٥] أو عقبة بن نافع[٧٦]، أو والده نافع بن عبد القيس الفهرى[٧٧].

ففيما يتعلق بعبدالله بن سعد، وهو ما ذكره المقريزى قائداً للحملة، فمن الثابت أن المقريزى قد خلط بين هذه الحملة وبين حملة عبدالله بن سعد سنة ٣١هـ . وإذا ثبت إشتراك عبدالله بن سعد فى حملة النوبة الأولى، فمن المرجح أنه كان واحداً من أفرادها وليس قائداً لها.

أما عقبة بن نافع، فقد أشارت المصادر إلى إسناد قيادة حملات أخرى إليه منذ بداية المحاولات الأولى لفتح المغرب سنة ٢٢ هـ/ ٦٤٣م[٧٨]. ولما كانت المصادر قد حددت فى نفس الوقت مولد عقبة فى السنة العاشرة للهجرة، أى قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بعام تقريبا[٧٩]. فإنه يكون فى العاشرة أو الحادية عشر من عمره أثناء حملة النوبة الأولى على أكثر تقدير، أى أنه لم يكن فى سن يسمح بإسناد قيادة الحملة إليه، وخاصة أنها كانت موجهة لمناطق تكاد تكون مسالكها وطبيعتها مجهولة بالنسبة للفاتحين، وإن إقتصرت مهمتها خلال تلك المرحلة على إستطلاع، إلا أن ذلك لا يمنع من مصاحبة عقبة لأبيه الذى كان قائداً للحملة، وهذا ما ذكره ابن عبد الحكم، إذ نص صراحة على أن

---

(٧٤) البلاذرى : نفس المصدر ص ٢٨١، المسعودى ؛ مروج الذهب، جـ١ ص ٢٤٧، ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص٢٢٨ .

(٧٥) المقريزى : نفس المصدر ، جـ١ ص ٢٠٠، عبد المجيد عابدين؛ تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ص ٣٥ .

(٧٦) البلاذرى : نفس المصدر، ق١ ص ٢٨٠، ابن خرداذبة المسالك؛ والممالك ، ص ٩٢.

(٧٧) ابن عبد الحكم؛ فتوح مصر ، ص ٢٢٨ .

(٧٨) انظر، السيد عبد العزيز سالم ؛ المغرب الكبير ، جـ٢ ص ١٤٢ ، ١٩١ ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، جـ١ ص ١٣١ ، ١٧٦ .

(٧٩) ابن عذارى : البيان المغرب، جـ١ ص١٩، ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة، القاهرة ١٢٨٠ - ١٢٨٦ هـ، جـ٣ ص ٤٢٠ ، السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، جـ٢ ص ١٩١- ١٩٢ ، سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع ، جـ١ ص ١٣٦ ، ١٧٦ .

الحملة كانت بقيادة نافع بن عبد القيس (٨٠)، وقد نسبت المصادر ذلك إلى عقبة، لما أشتهر به بعد ذلك باعتباره من كبار قادة الفتوحات فى بلاد المغرب، فخلطت المصادر فى هذه الحملة بين الصبى الصغير عقبة وبين والده، ونسبت قيادة تلك الحملة وغيرها من الحملات المبكرة إليه.

أما عن حملة عبدالله بن سعد على النوبة، فتجمع المصادر على أنها كانت سنة ٣١ هـ/ ٦٥٢م (٨١). إلا أن بعضها لم يشر إلى الحملة الأولى، وأعتبر أن حملة عبدالله بن سعد سنة ٣١ هـ، هى أولى الحملات التى وجهها المسلمون إلى بلاد النوبة، قال الذهبى والنويرى وابن الفرات وابن ايبك وغيرهم: أن "أول ما غزيت النوبة سنة إحدى وثلاثين للهجرة النبوية " (٨٢).

ولاشك أنه فيما سبق توضيحه ما يكفى لتأكيد أن حملة ابن سعد لم تكن أولى الحملات على النوبة، وأن بداية محاولات فتحها كانت سنة ٢٠ أو ٢١هـ/ ٦٤١ أو ٦٤٢م أى بعد فتح مصر مباشرة.

ونظراً لأن المصادر لم تمدنا بمعلومات عن حملات أخرى فيما بين الحمله الأولى وحملة ابن سعد، أى لفترة تزيد عن عشر سنوات، فقد يتبادر إلى الأذهان أن الحملات قد توقفت خلال تلك الفترة، وقد يؤيد ذلك ما ذكره القلقشندى – نقلا عن الروض المعطار – من " أن عمرو بن العاص رضى الله عنه قصد قتال

(٨٠) فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٨ .

(٨١) ابن عبد الحكم : نفس المصدر، ص ٢٥٢، ٢٥٣ ياقوت: معجم البلدان، مادة دمقلة، ابن الفرات: تاريخه، جـ ١٣ لوحة ٣٠ ب، ابن ايبك: كنز الدرر، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤٣ تاريخ، جـ ٨ ص ٢٠١، النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة، جـ ٢٩ ورقة ٢٥٩ ب، وقارن، خليفة بن خياط، (حيث جعل حملة ابن سعد سنة ثلاث وثلاثين إلى الحبشة، قال: وفيها غزا ابن سرح الحبشة، فأصيبت عين معاوية بن حديج"). تاريخ خليفة ابن خياط تحقيق سهيل زكار ١٩٦٧، جـ ١ ص ، ١٧٨.

(٨٢) تاريخ الإسلام، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٦ تاريخ، جـ ٢٩ ص ١٢٨، نهاية الأرب، جـ ٢٩ ورقة ٢٥٩ ب، تاريخ ابن الفرات، جـ ١٣ لوحة ٣٠ ب، كنز الدرر، جـ٨ ص ٢٠١ – ٢٠٢، وانظر ياقوت: معجم البلدان، مادتى دمقلة والنوبة، اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ ٢ ص ١٤٣، الدمشقى: نخبة الدهر، ٢٦٩.

النوبة، فرآهم يرمون الحدق بالنبل، فكف عنهم، وقرر عليهم إتاوة من الرقيق فى كل سنة (٨٣).

وإذا كان الكف عن حرب النوبة قد ورد صريحا فيما أورده القلقشندى، إلا أن ما جاء فى هذه الرواية من أخطاء، كجعل الحملة الأولى بقيادة عمرو بن العاص، وأن من نتائجها تقرير إتاوة سنوية من الرقيق تقدمها النوبة، لما يجعل من الحكمة عدم الأخذ بها، اللهم إذا كان المقصود حملة عبدالله بن سعد التى لم تكن فى عهد عمرو.

ومما يزيد الشك فى رواية القلقشندى، ما أورده فى صفحة سابقة، جاعلا الحملة بقيادة عمرو بن العاص أيضاً، إذ ذكر أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر قام بغزو النوبة، وأورد القلقشندى نصاً نقله أيضاً عن الروض المعطار، جاء فيه فرآهم يرمون الحدق بالنبل، فكف عنهم، وقرر عليهم إتاوة فى كل سنة (٨٤). وقد يكون تكرار النص على الكف عن حربهم، تأكيد لهذا الخبر، إلا أنه بالرجوع للروض المعطار يتضح إختلاف ما أورده القلقشندى عما ذكره صاحب الروض المعطار، حيث النص فيه كما يلى:

ولما افتتحت مصر، أمر عمر رضى الله عنه أن تغزى النوبة، فوجدهم المسلمون يرمون الحدق، فذهبوا إلى المصالحة، فأبى عمرو بن العاص رضي الله عنه من مصالحتهم حتى صرف عن مصر ووليها عبدالله بن سعد بن أبى سرح سنة إحدى وثلاثين (٨٥).

وهكذا يتضح أن صاحب الروض المعطار لم ينص على توقف الحملات أو المصالحة أو التوصل إلى تقرير شىء على النوبة فى عهد ولاية عمرو بن العاص على مصر.

وأيا ما كان الأمر، فإنه إعتمادا على غير تلك النصوص، نستطيع أن نقرر عدم توقف الغزوات فيما بين الحملة الأولى وبين حملة عبدالله بن سعد.

(٨٣) صبح الأعشى: جـ ٥ ص ٢٧٨.

(٨٤) صبح الأعشى : جـ ٥ ص ٢٧٦ .

(٨٥) الحميرى : الروض المعطار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت مادة دمقلة ص ٢٣٧ .

ففى رواية البلاذرى بسنده عن شيخ من حمير، ما يدل على إستمرار الحملات، إذ قال الشيخ: "شهدت النوبة مرتين فى ولاية عمر بن الخطاب" (٨٦).

كما تشير نصوص أخرى إلى عدم مصالحة عمرو بن العاص للنوبة، وأن كتائب الفرسان إستمرت فى الوصول إلى النوبة بعد الحملة الأولى، صوائف كصوائف الروم ولم يزال الأمر على ذلك حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر، وأمر عبدالله بن سعد، فصالحهم (٨٧).

وهكذا يتأكد أن حملة عبدالله بن سعد سنة ٣١ هـ / ٦٥٢م، لم تكن أولى الحملات التى وجهها الفاتحون إلى النوبة، وإن الحملة الأولى كانت سنة ٢٠ أو ٢١ هـ/ ٦٤١ - ٦٤٢ م، وأن كتائب فرسان المسلمين لم تتوقف عن الوصول إليها، وأنها إستمرت حتى بعد عزل عمرو وولاية ابن سعد، الذى بدأت ولايته على مصر سنة ٢٥ هـ/ ٦٤٦م (٨٨). ومن المرجح أنه حدث خلال السنوات الست التالية لولايته، ما كان سبباً فى قيامه بحملته التى أشارت إليها المصادر، وحددت توقيتها فى عام ٣١ هـ / ٦٥٢ م. أما عن القول بأنها أولى الحملات التى أرسلت إلى النوبة، فإنه يمكن اعتبارها كذلك، إذا كان المقصود من حيث العدد والعدة والتوغل فى عمق البلاد إلى دنقلة، وما نتج عنها من إتفاق جرى العمل به بعد ذلك.

وأيا ما كان الأمر، فلم يكن والى مصر مطلق اليد فى التصرف فى أمر الفتوحات غربا أو جنوباً، وإنما كان ذلك يتم تنفيذاً لسياسة مرسومة تتفق مع تطورات الحوادث وطبيعة المرحلة، وبعد موافقة الخليفة ، وقد أشارت بعض المصادر إلى استئذان عمرو بن العاص من الخليفة عمر بن الخطاب لاعداد وتوجيه الحملات، ولم يقتصر ذلك على ما يتعلق بالنوبة (٨٩)، وإنما كان الأمر كذلك بالنسبة للحملات التى وجهت إلى بلاد المغرب (٩٠). كما كانت الحملات

(٨٦) فتوح البلدان ، ق ١ ص ٢٨٠ .

(٨٧) البلاذرى : نفس المصدر ، ق١ ص ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٢٨ ، المسعودى مروج الذهب ، جـ ١ ص ٢٤٧ .

(٨٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ١ حوادث سنة ٢٥ هـ ، وجعلها ابن الأثير سنة ٢٦ هـ . أنظر ، الكامل فى التاريخ . حوادث سنة ٢٦ هـ .

(٨٩) انظر، المسعودى: مروج الذهب، جـ ١ ص ٢٤٦ .

الأولى فى الجبهتين عباره عن سرايا استطلاعية للإستكشاف، محافظة على وحدة القوات الإسلامية فى مصر ومنعا من تفرقها وتشتتها فى تلك القفار الشاسعة.

فلما كان عهد خلافة عثمان بن عفان، واستقرت الفتوحات الإسلامية، وزاد عدد المسلمين بإقبال أهالى البلدان المفتوحة على إعتناق الإسلام. وبالنسبة لبلاد النوبة، فيبدو أن السرايا الإستطلاعية قد أدت مهمتها، وتوفرت المعلومات عن تلك البقاع. ونتيجة لذلك ولكثرة الإغارات النوبية على صعيد مصر، وما قام النوبيون خلالها من سلب ونهب وتخريب (٩١)، فقد توفرت الأسباب الموجبة لإعداد حملة كبيرة لوضع حد لتلك الأعمال.

ففى سنة ٣١ هـ/ ٦٥٢م توجه عبدالله بن سعد على رأس حملة أحكم إعدادها، إذا كانت تتكون من خمسة آلاف فارس (٩٢)، مزودين بالمؤن والسلاح وآلات الحصار، واتخذ طريقه عبر أراضى النوبة متوغلاً إلى مدينة دنقلة (٩٣). عاصمة مملكة النوبة الشمالية مقرة.

ولتلافى الوقوع فى مصيدة سهام النوبيين، فقد قام عبدالله بن سعد بفرض الحصار على العاصمة النوبية ، واستخدم المنجنيق فى قصفها ، فخربت قذائفه كثيراً من الدور ومنها كنيسة المدينة. وعندئذ فوجىء ملك النوبة قليدوروث بهذا الأسلوب الحربى الذى لم تعهده النوبة من قبل (٩٤) ، وأسقط فى يده ، واضطر إلى الإسراع فى طلب الصلح ، حتى لا تؤخذ بلاده عنوة، «وخرج إلى عبد الله

(٩٠) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢٦٦، ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٤٠، ابن عذارى: البيان المغرب، جـ١ ص ٨، أبو العرب: طبقات علماء افريقية، بيروت، ص ١٦، سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى، جـ ١ ص ١٤٢، - ١٤٣، السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، جـ ٢ ص ١٥٠ .

(٩١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٠٠ .

(٩٢) النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٩ ورقة ٢٥٩ ب، ابن الفرات تاريخه، جـ ١٣ لوحة ٣٣ م.

(٩٣) الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ ٢٩ ص ١٢٨، النويرى: نفس المصدر والصفحة، ابن الفرات : نفس المصدر واللوحة.

Holt : The Nilotic Sudan (in the Cambridge Eistory of Islam, Vol., II, P. 328.

(٩٤) المقريزى: الخطط، جـ ١ ص ٢٠٠ .

وأبدى ضعفاً ومسكنة وتواضعاً. فتلقاه عبد الله ورفعه وقربه ، ثم قرر الصلح معه على ثلثمائة وستين رأساً فى كل سنة ، ووعده عبد الله بحبوب يهديها إليه لما شكا له قلة الطعام ببلده(٩٥) .

قال ابن عبد الحكم ومن نقل عنه، أنه «أصيب يومئذ عين معاوية بن حديج وأبى شمر ابرهة (الصباح) وحيويل بن ناشرة، فيومئذ سموا رماة الحدق ، فهادنهم عبد الله بن سعد إذ لم يطقهم ، وقال الشاعر :

لم ترعينى مثل يوم دمقلة والخيل تعدو والدروع مثقلة(٩٦) .

غير أن إصابة عيون المقاتلين ، وتسمية النوبيين برماة الحدق، إنما كان فى الحملة الأولى ، حيث فوجىء المسلمون وقتذاك ببراعة النوبيين المتناهية فى إصابة الهدف بالسهام من بعيد ، لذلك لم يتمكن المسلمون آنذاك من الالتحام بهم لمقاتلتهم بالسيوف. أمّا فى هذه المعركة، فإن الحصار الذى فرضه المسلمون على العاصمة ، واستخدام المنجنيق فى ضربها، فوت الفرصة على النوبيين فى استخدام السهام، لبعد المسلمين عن مرماها، ولهذا عجزوا عن مدافعة المسلمين، وأيقنوا بالهلاك ، وخرج ملكهم خاضعاً طالباً الصلح . وهو أمر لا يحدث ، إذا كان النوبيون قد تمكنوا من استخدام سهامهم فى هذه الحملة.

يؤيد ذلك ما قاله كل من البلاذرى وابن خرداذبة والطبرى والمسعودى وابن الأثير، من أن إصابة عيون المقاتلين فى الحملة الأولى ، ولم يشر أى من هؤلاء إلى تكرار ذلك فى حملة عبد الله بن سعد المشار إليها(٩٧) .

وهكذا ، فقد تحقق النصر للمسلمين فى هذه المعركة ، بعد أن تهاوت عزائم النوبيين وعجزوا عن الدفاع عن مدينتهم ، ولهذا أسرع ملكهم إلى طلب الصلح

---

(٩٥) المقريزى : نفس المصدر والصفحة.

(٩٦) فتوح مصر، ص ٢٥٢ - ٢٥٣، الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ ٢٩ ص ١٢٨، النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٩ ورقة ٢٥٩ ب، ابن الفرات: تاريخه، جـ ١٣ لوحة ٣٠ أ، ياقوت: معجم البلدان، مادة دمقلة.

(٩٧) فتوح البلدان، ق ١ ص ٢٨٠ ، ٢٨١، المسالك والممالك، ص ٩٢، تاريخ الرسل والملوك، ق ١ ص ٢٥٩٣، مروج الذهب، جـ ١ ص ٢٤٧، الكامل فى التاريخ، جـ ٢ ص ، ٣٩٧

قبل أن تفتح مدينته عنوة ، أما استجابة ابن سعد له ، فتنفيذا لقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل علي الله﴾[٩٨] .

قال البلاذرى : إن النوبيين سألوا ابن سعد «الصلح والموادعة فأجابهم[٩٩] ». وقال: «حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام، قال : حدثنا عبد الله بن صالح عن أبى لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب قال: ليس بيننا وبين الأساود[١٠٠] عهد ولا ميثاق ، إنما هدنة بيننا وبينهم[١٠١] .

وقال ابن عبد الحكم ومن نقل عنه: «إنما هي هدنة أمان[١٠٢] » ، على ألا نقاتلهم ولا يقاتلوننا، «وأن يعطونا رقيقاً ونعطيهم بقدر ذلك طعاماً[١٠٣] ».

أما فيما يتعلق بنص كتاب عبد الله بن سعد لملك النوبة ، فقد أورد ابن عبد الحكم بعضاً منه، قال: «ويقال فيما ذكر بعض المشائيخ المتقدمين ، إنه نظر فى بعض الدواوين بالفسطاط وقرأه قبل أن ينحرق ، فإذا هو يحفظ منه : إنا عاهدناكم وعاقدناكم أن توفونا فى كل سنة ثلاثمائة رأس وستين رأساً. وتدخلوا بلادنا مجتازين غير مقيمين، وكذا ندخل بلادكم. على أنكم إن قتلتم من المسلمين قتيلاً، فقد برئت منكم الهدنة . وعلى إن آويتم للمسلمين عبداً ، فقد برأت منكم الهدنة. وعليكم رد أباق[١٠٤] المسلمين، ومن لجأ إليكم من أهل الذمة[١٠٥] ».

---

(٩٨) سورة الأنفال، آيه ٨ .

(٩٩) فتوح البلدان، ق ١ ص ٢٨٠، وانظر، ياقوت : معجم البلدان، مادة دمقلة.

(١٠٠) الأساود، هم النوبة (ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص ٢٥٢).

(١٠١) فتوح البلدان، ق١ ص ٢٨١ .

(١٠٢) فتوح مصر، ص ٢٥٣، ياقوت: معجم البلدان، مادة دمقلة، النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٩ ورقة ٢٦٠ م، ابن الفرات : تاريخه، جـ ١٣ لوحة ٣٠ ب.

(١٠٣) البلاذرى: نفس المصدر والصفحة، وانظر ابن عبد الحكم: نفس المصدر والصفحة، الطبرى: نفس المصدر، ق ١ ص ٢٥٩٣، ياقوت: معجم البلدان، مادة دمقلة، ابن الأثير: نفس المصدر جـ ٢ ص ٣٩٧، النويرى: نفس المصدر والصفحة، ابن الفرات: نفس المصدر واللوحة.

(١٠٤) الآبق: هو العبد البالغ الهارب.

(١٠٥) فتوح مصر، ص ٢٥٤ .

أما النص الكامل لكتاب عبد الله بن سعد ، فقد أورده المقريزى فى خططه وإن كان قد أغفل ذكر مصدره ، ونصه بعد البسملة كالآتى :

عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته ، عهد على الكبير والصغير من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة، أن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة، أنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبى ﷺ ، أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم ، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه . وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو طرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم، وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه، ولا تمنعوا منه ولا تتعرضوا لمسلم قصده وحاوره إلى أن ينصرف عنه. وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصلياً ، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته . وعليكم فى كل سنة ثلثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين ، من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم . تدفعوا ذلك إلى والى أسوان. وليس على مسلم دفع عدولكم ولا منعه عنكم، من حد أرض علوة إلى أرض أسوان. فإن أنتم آويتم عبداً لمسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس والستين رأساً ، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وأنتم على سواء ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد ﷺ ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم، الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك .

كتبه عمرو بن شرحبيل فى رمضان سنة إحدى وثلاثين(١٠٦) .

---

(١٠٦) الخطط، جـ ١ ص ٢٠٠ .

قال الطبرى : «قال على ، قال الوليد بن لهيعة: و أمضى ذلك الصلح عثمان ومن بعده من الولاة والأمراء[١٠٧] .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أنه ليس فيما لدينا من نصوص ما يدل على توقيع ملك النوبة على هذا الكتاب. غير أن التزام النوبيين بالوفاء بما ورد فيه يؤكد القبول بما تضمنه .

ويتضح من النص الكامل للكتاب ، أنه :

■ أمان لمملكة النوبة الشمالية (مقرة) ، هدنة بين المسلمين وبين تلك المملكة فقط، إلى حد أرض علوة (المملكة الجنوبية) ، أى أنه لم يتضمن مملكة علوة.

■ ضمان لحرية دخول المسلمين والنوبيين كل إلى بلد الآخر غير مقيمين . وأن يحفظ النوبيون من يصل إلى بلادهم من مسلم أو معاهد حتى يخرج .

■ عدم إيواء مسلم محارب للمسلمين ، أو الفارين من عبيد المسلمين .

■ القيام بحفظ المسجد الذى أقامه المسلمون بدنقلة ، والتعهد بنظافته وإنارته، وعدم التعرض بسوء لمن يقصده مصلياً كان أو مجاوراً .

■ عدم إلتزام المسلمين بحماية النوبيين ، أو تقديم أية مساعدة لهم ضد أعدائهم.

■ التعهد بتسليم ٣٦٠ رأساً من الرقيق سنوياً .

■ يلتزم المسلمون بعدم محاربة النوبيين ماداموا ملتزمين بدورهم بالوفاء بما ورد بشأنهم فى الكتاب المذكور .

ولا شك أن ما قرره عبد الله بن سعد يتفق مع طبيعة وظروف بلاد النوبة ، ويؤدى فى نفس الوقت إلى تحقيق الأهداف الأساسية للفتوحات، من حيث اتصال الدعاة بأهل البلاد، والتمهيد لنشر الإسلام والثقافة الإسلامية بينهم. بالإضافة إلى وقف الإغارات النوبية على صعيد مصر وتأمين حدود مصر الجنوبية ، وتنشيط الحركة التجارية .

---

(١٠٧) تاريخ الرسل والملوك، ق ١ ص ٢٥٩٣، ابن الأثير: نفس المصدر والصفحة.

أمـا النص المتعلق بالرقيق ، فمن المحتمل أن يكون القصد منه التأكد من استمرار التزام النوبيين بتنفيذ بقية ما نص عليه عهد الأمان، والوفاء بما تعهدوا به ، خاصة وأن المصادر لم تشر إلى قيام المسلمين بترتيب نائب أو حاميات إسلامية فى النوبة .

ومما يذكر أن هذا الرقيق الذى نُص عليه، هو وحده الذى اصطلح عليه بالبقط [١٠٨] دون بقية ما نص عليه العهد. وربما كانت لفظة (البقط) مصرية قديمة بمعنى عبد، وأطلقتها المصادر العربية على ما تقدمه النوبة من رقيق[١٠٩]. أما إذا كانت عربية، فهى - كما يقول المقريزى - تعنى فرقة من الشئ أو قطعة منه، وهى هنا بمعنى «بعض ما فى أيدى النوبة»[١١٠] .

فالبقط إذن، «ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم[١١١] » طبقاً لما قرر[١١٢] . وقد فرض بنفس القدر فى جبهة المغرب على أهل ودان وجرمة[١١٣] ، إلاّ أنه لم يطلق عليه هناك نفس الإسم.

وقد جعل ابن خلدون البقط جزية [١١٤] . وقال غيره بأنه ليس بجزية[١١٥] ولا خراج[١١٦] ، وقال ابن الفرات بأنه ضريبة [١١٧] . وقيل بل هو هدية[١١٨]

(١٠٨) المسعودى: مروج الذهب، جـ ١ ص ٢٤٧ .
(١٠٩) بيكر : مادة (بقط) بدائرة المعارف الإسلامية.
(١١٠) الخطط، جـ ١ ص ١٩٩ .
(١١١) المقريزى: نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩٩ ، ٢٠١ .
(١١٢) النويرى: نفس المصدر، جـ ٢٩ ورقة ٢٥٩ ب، ابن الفرات : تاريخه، جـ ١٣ لوحة ٣٠ ب .
(١١٣) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى، جـ١ ص ١٨٠، السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، جـ ٢ ص ١٩٤ .
(١١٤) تاريخ ابن خلدون، جـ ٥ ص ٩٢١، بيكر: مادة (بقط) بدائرة المعارف الإسلامية.
(١١٥) البلاذرى: فتوح البلدان ق١ ص ٢٨٠ .
(١١٦) ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص ٩٢.
(١١٧) تاريخ ابن الفرات، نفس اللوحة، النويرى : نفس المصدر والورقة.
(١١٨) البلاذرى: نفس المصدر والصفحة، الطبرى : نفس المصدر والصفحة، ابن خرد اذبة: نفس المصدر والصفحة، ابن الأثير : نفس المصدر والصفحة.

أو عطاء يقدمه النوبيون ، ويؤدى المسلمون فى مقابله طعاماً(١١٩) . غير أن نص العهد الذى أورده المقريزى ، لم يرد فيه شرط عن التزام المسلمين بتقديم شىء من غلال أو خلافه، غير أن هدية الغلال، إنما كانت بعد أن قرر ابن سعد الصلح مع ملك النوبة ؛ على نحو ماورد فى الكتاب . فلما شكا الملك قلة الطعام ببلده، وعده ابن سعد بحبوب يهديها إليه (١٢٠) ، وبعث له ما وعده به من حبوب قمحاً وشعيراً وعدساً وثياباً وخيلاً، قال المقريزى: «ثم تطاول الرسم على ذلك ، فصار رسماً يأخذونه عند دفع البقط فى كل سنة(١٢١) ». ولم يتوقف المسلمون عن إرسال هديتهم طالما استمر النوبيون فى المحافظة على تنفيذ ما التزموا به، بما فى ذلك البقط .

ورغم تحديد كتاب ابن سعد للبقط بثلاثمائة وستين رأساً، وأن العدد كان كذلك فيما فرض فى جبهة المغرب، إلاّ أن بعض الروايات ذكرت أرقاماً تختلف عن ذلك. ففى رواية البلاذرى بسنده إلى يزيد بن أبى حبيب ، قال : أنهم ثلاثمائة رأس فقط(١٢٢) ، وقيل بل صالحهم على أربعمائة رأس(١٢٣) . لوالى مصر منها أربعين(١٢٤) .

أما المسعودى ، فقد جعلهم ثلاثمائة وخمس وستين رأساً ، أى بزيادة خمسة ،

(١١٩) البلاذرى: نفس المصدر، ص ٢٨٠، ٢٨١، ابن عبد الحكم : نفس المصدر، ص ٦٥٣، الطبرى: نفس المصدر والصفحة، ابن خرد اذبة: نفس المصدر والصفحة، ياقوت: مادة دمقلة، نفس المصدر والصفحة. ابن خرد اذبة : نفس المصدر والصفحة. ياقوت : مادة دمقلة، ابن الفرات : نفس المصدر واللوحة، النويرى : نفس المصدر والورقة، بيكر: مادة بقط بدائرة المعارف الإسلامية Quatremére : Memoires Géographiques et Ilistoriques sur 1' Egypte, et sur quelques contrees voisins, I8II Vol., II, P. 42, Mac Michael : A History of the Arabs in the Sudan, 1922, Vol. I, P. 158.

(١٢٠) المقريزى: الخطط، جـ ١ ص ٢٠٠ .

(١٢١) الخطط، نفس الجزء والصفحة.

(١٢٢) البلاذرى: نفس المصدر، ق ١ ص ٢٨٠، ابن خرداذبة: نفس المصدر والصفحة.

(١٢٣) ياقوت: معجم البلدان، مادة نوبة، النويرى : نفس المصدر والورقة، ابن الفرات : نفس المصدر والورقة.

(١٢٤) ابن عبد الحكم : نفس المصدر، ص ٢٥٤، ابن الفرات : نفس المصدر واللوحة، النويرى: نفس المصدر والورقة.

وقال : «وأراه رسماً على عدد أيام السنة[١٢٥] . وأن هذا ما يخص بيت مال المسلمين ، تنفيذاً لشرط الهدنة . وزاد على ذلك عدداً آخر خارج عن الشرط ، عبارة عن أربعين رأساً لأمير مصر، وعشرين لنائبه فى أسوان، وخمسة للقاضى الذى يحضر مع أمير أسوان لاستلام البقط ، واثنى عشر رأساً لاثنى عشر شاهداً عدولاً يحضرون الاستلام. قال المسعودى : وهذا «على حسب ما جرى به الرسم فى صدر الإسلام فى بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة». وكان يتم تسليم البقط فى موضع يعرف بالقصر ، على ستة أميال جنوبى أسوان»[١٢٦] .

وقد حدد العهد وصف ونوعية ما تقدمه النوبة من رقيق ، إذ يجب أن يكون من أوسط رقيقهم، «غير المعيب، يكون فيها ذكران وإناث ، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم[١٢٧] ».

قال ابن عبد الحكم : «فزعم بعض المشايخ أن منها سبعة عشر مرضعاً [١٢٨] .

والرقيق أو البقط الذى تقدمه النوبة، هو «ما يأخذون من رقيق أعدائهم[١٢٩]». مما يسبيه ملكهم «المجاور للمسلمين من غيرهم من بلاد النوبة[١٣٠] ». قال البلاذرى: «فاذا لم يجدوا منه شيئا، عادوا على أولادهم، فأعطوا منهم فيه بهذه العدة[١٣١] ».

وقال ابن عبد الحكم: «قال ابن لهيعة: ولا بأس أن يشترى رقيقهم منهم ومن غيرهم[١٣٢] ».

---

(١٢٥) مروج الذهب، جـ ١ ص ٢٤٧ .

(١٢٦) مروج الذهب ، جـ ١ ص ٢٤٧، المقريزى : الخطط، جـ ١ ص ، ٢٠١

(١٢٧) المقريزى : نفس المصدر، ص ٢٠٠ .

(١٢٨) فتوح مصر ، ص ٢٥٤ .

(١٢٩) البلاذرى: نفس المصدر، ص ، ٢٨١

(١٣٠) المسعودى: نفس، المصدر، والصفحة.

(١٣١) فتوح البلدان، نفس الصفحة.

(١٣٢) فتوح مصر، ص ٢٥٣ ، وانظر، البلاذرى: نفس المصدر والصفحة، النويرى: نفس المصدر جـ ٢٩ ورقة ٢٦٠ أ، ابن الفرات : نفس المصدر واللوحة.

ولا شك أن أخذ الرقيق أو شراءه فى الإسلام إنما يهدف إلى تعريفهم بالإسلام - فالدعوة للإسلام هى الهدف الرئيسى للفتوحات - وتربية هؤلاء على العادات والتقاليد الإسلامية ، وتعليمهم اللغة العربية. فإذا ما تحقق ذلك تم عتقهم (١٣٣) ، فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وتلك كانت وسيلة من وسائل توثيق العلاقات بين المسلمين والنوبة .

وهكذا فقد وضع عبد الله بن سعد الأسس للعلاقات المختلفة بين المسلمين والنوبة، وتم تنظيم تلك العلاقات بطريقة تضمن تحقيق الاتصال السلمى بين البلدين ، وتأمين الحدود ووقف الإغارات . مما كان له أكبر الأثر فى تسهيل وصول الدعوة وانتشار الإسلام فى بلاد النوبة سلمياً ، وما البقط إلا دليل على استمرار وفاء النوبيين بما تعهدوا به .



(١٣٣) أنظر، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، جـ ١ ص ١٣٢ - ١٣٣ .

المصـــادر والمـراجـع

■ أولاً : المصادر :

ابن الأثير ، عزالدين أبو الحسن على (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣م) .

● أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، القاهرة ١٢٨٠ - ١٢٨٦ هـ .

● الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٣٤٩ هـ.

الأصطخرى ، أبو القاسم إبراهيم (ت ٣٤٦ / ٩٥٧م).

● المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦١ .

ابن أيبك الدوادارى ، أبو بكر بن عبد الله (ت ٧٣٢ هـ ١٣٣١ م)

● كنز الدرر وجامع الغرر ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤٣ تاريخ.

البلاذرى ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) .

● فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ١٩٥٦ .

ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ ١٤٦٩ م) .

● النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٣٥ .

الحميرى ؛ محمد بن عبد المنعم .

● الروض المعطار فى خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ .

ابن حوقل، أبو القاسم محمد البغدادى (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م).

● صور الأرض، ليدن ١٩٣٨ .

ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م) .

● المسالك والممالك ، ليدن ١٨٩٩ .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) .

● العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ١٩٥٨ .

خليفة بن خياط العصفرى (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) .

● تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق سهيل زكار ، ١٩٦٧ .

الدمشقى ، محمد بن أبى طالب الانصارى (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٨م) .

● نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ليبزج ١٩٢٨ .

الذهبى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٦٩ تاريخ.

السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) .

● حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ١٣٢٧ .

أبو صالح الأرمنى (ت ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨م) .

● تاريخ أبى صالح الأرمنى ، ١٨٩٤ .

الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ ٩٢٢/م) .

● تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ١٨٩٣ .

ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م) .

● فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ١٩٦١ .

ابن عذارى ، أبو العباس أحمد المراكشى .

● البيان المغرب فى أخبار المغرب ، ليدن ١٩٤٨ - ١٩٥١ .

أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم (ت ٧٣٣ هـ/ ٩٤٤ م) .

● طبقات علماء إفريقية ، طبع بيروت .

أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل بن على (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢م).

● المختصر فى أخبار البشر ، طبع بيروت .

ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤ م) .

● تاريخ الدول والملوك ، مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٣١٩٧ تاريخ تيمور .

ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمدانى (ت ٢٩٠هـ / ٩٠٣م) .

● مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٨٨٥ .

القزوينى ، زكريا بن محمد (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) .

● آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٩٦٩ .

القلقشندى ، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م).

● صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩ .

ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) .

● البداية والنهاية ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .

المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) .

● التنبيه والإشراف ، ليدن ١٨٩٨ م).

● مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ١٢٤٦ هـ .

المقريزى ، أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م).

● المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والإثار ، بولاق ١٢٧٠ .

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م) .

● نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

الواقدى، محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٣ م) .

● فتوح مصر والاسكندرية ، ليدن ١٨٢٥ .

ابن الوردى، زين الدين عمر بن المظفر (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م) .

● تتمية المختصر ، بيروت ١٩٧٠ .

ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى (ت ٦٢٦ / ١٢٢٩ م) .

- معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦ .

اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧ م) .

- كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩١ م .
- تاريخ اليعقوبى ، النجف ١٣٥٨ هـ .

■ ثانياً : المراجع العربية :

بتلز ، الفرد . ج .:

- فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة، ١٩٤٩ .

بيكر :

- مادة (بقط) فى دائرة المعارف الإسلامية .

حسن إبراهيم حسن (الدكتور) :

- انتشار الإسلام فى القاهرة الافريقية ، ١٩٦٤ .

حسن أحمد محمود (الدكتور)

- الإسلام والثقافة العربية فى افريقية ، القاهرة ١٩٦٣ .

دائرة المعارف الإسلامية .

■ الترجمعة العربية :

دريوتون وفانديه :

- مصر ، ترجمة عباس بيومى ، ١٩٥٠ .

سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) .

- تاريخ المغرب العربى ، الاسكندرية ١٩٧٩ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) .

- مصر فى عصر المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ .

السيد عبد العزيز سالم (الدكتور) .

- المغرب الكبير ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٦ .

عبد المجيد عابدين (الدكتور) .

- تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ١٩٥٣ .

محمد التونجى

- عقبة بن نافع ، بنغازى ١٩٧٥ .

محمد عوض محمد (الدكتور)

- السودان الشمالى ، سكانه وقبائله ، ١٩٥١ .
- الشعوب والسلالات الافريقية ، ١٩٦٥ .
- نهر النيل ، الطبعة الأولى .

مصطفى محمد مسعد (الدكتور) .

- الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٠ .

■ المراجع الاجنبية :

Arkell.

A History of the Sudan to A.D. 1821, London, 1955 .

Becker,

Art. "Bakt" in ENC. of Islam, 1913.

Budge,

The Egyptian Sudan, Its History and Monuments, London, 1907.

Burckhardt,

Travels in Nubia, London, 1819.

Bury,

History of the later Roman Empire, London, 1889.

Holt:

The Nilotic Sudan (Combridge History of Islam, 1970, Vol. 2.

MacMichael,

A History of the Arabs in the Sudan, 1922.

Paul,

A History of the Beja Tribes of the Sudan, Camb. 1954.

Quatremére,

Mémoires Géographiques et historiques sur l'Egypte et sur quelques Contres Voisins, 1811.

Shinnie,

The Fall of Meröe, Kush, Vol. III, (Sudan Antiquities Service Occasional Papers) 1955.

Trimingham,

Islam in the Sudan, London, 1949.

خزانة الكتب التاريخية